الدينامية الهوياتية للطفل في وضعية الشارع وأشكال الوصم -مدينة الرباط نموذجا-.

The dynamic identity of the child in street situation and the -forms of stigma -Rabat as a case study-

هاجر بوزيد، كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة محمد الخامس- المغرب.

ملخص: يتناول هذا المقال إشكالية الدينامية الهوياتية للطفل في وضعية الشارع وكيفية تمفصلها مع أشكال الوصم، ذلك أن الدينامية الهوياتية هي تلك السيرورة التي تدمج تفكك التصور السابق للطفل حول ذاته وتشكل في المقابل تصور جديد، وبما أن ولوج الطفل للشارع، واتخاذه من هذا الأخير فضاء للعيش الدائم، قد يشكل عنصرا مهما في خلخلة وتفكيك تصوره حول ذاته، باعتباره حدثا يشكل منعطفا بيوغرافيا في المسار الشخصي للطفل، والانتقال إلى مرحلة ثانية ضمن هذه السيرورة، وهي بناء هوية اجتماعية جديدة للطفل ناجمة بالأساس عن الإطار الجديد للعيش (الشارع)، والتفاعلات التي تقام ضمن هذا الفضاء بين الطفل والآخرين (أفراد المجتمع ومجموعة الأقران والمجموعات الأخرى المتواجدة في الشارع) بالإضافة إلى التأويلات المقدمة لسلوكات وممارسات الطفل، لقد تم تحليل هذه الدينامية الهوياتية للطفل في وضعية الشارع بالاستناد على إطار نظري تحليلي في حقل السوسيولوجيا وهو التفاعلية الرمزية، وقد مكننا هذا التموقع النظري من تحليل المعطيات الميدانية المحصل عليها انطلاقا من مقابلات (نصف موجهة) أنجزت مع أطفال في وضعية الشارع، وقد شملت هذه الدراسة المنجزة في مدينة الرباط عينة تضم أربعة أطفال وطفلة.

الكلمات المفتاحية: الطفل في وضعية الشارع، الهوية الاجتماعية، الدينامية الهوياتية، الوصم.

Abstract: This article discusses the dynamic identity of the child in street situation and how it is separated from the forms of stigma, The dynamic identity is the process that merges the dissociation of the child's previous perception of himself and therefore forms a new one, since the child makes of the street a place to his permanent life would be an intrinsic component in the dissociation of his or her perception of himself or herself, It is an incident that constitutes a biographical turn in the child's personal path and hence the child builds a new social identity, which is the result of the new space of life, the street, and the interactions with other people in the same space, such as peers and different members of society, in addition to the previous interpretations of the child's behaviors. The dynamic identity of the child in the street situation was analyzed based on the interactive symbolism, as an analytical theoretical framework in the field of sociology, which enabled us to analyze data obtained by means of semi-structured interviews with children in the street situation. This study included a sample of four male children and one female child in Rabat.

Keywords: child in street situation, social identity, dynamic identity, stigma.

مقدمة:

إذا كان علم النفس سباقا في تناول موضوع الطفل والطفولة من الناحية السيكولوجية، مع الوقوف عند الخصائص المميزة لهذه المرحلة العمرية، فإن حقل السوسيولوجيا الفركوفوني لم يولي اهتمام لنفس الموضوع إلا في بداية القرن العشرين (Sirota Regine، 2006، ص13)، ويرجع السبب الكامن وراء تأخر اهتمام الباحثين بموضوع الطفل من المنظور السوسيولوجي إلى لا مرئيته وتهميش هذه الفئة العمرية في الحياة الاجتماعية، مما أدى إلى تهميشها أيضا من طرف الجماعة العلمية المنتمية لهذا الحقل.

وقد بينت بعض الإنتاجات العلمية في حقل التاريخ أن كل مرحلة تاريخية معينة تتميز بتفضيل فئة عمرية عن باقي الفئات الأخرى، وهذا ما أكده المؤرخ الفرنسي فليب أريس (Philippe Aries) في مؤلفاته، بحيث عمل هذا الباحث على التنقيب في التاريخ الاجتماعي لبعض المجتمعات في القرون الوسطى، وخلص إلى أنه لم يكن الحديث في هذه الحقبة عن الطفولة والطفل، بمعنى غياب هذا الأخير من الحياة الاجتماعية، ويتجلى هذا الغياب في انعدام أحاسيس اتجاه الطفل ومصطلحات لتعيين هذه الفئة، بحيث يلج الطفل العوالم الخاصة بالراشدين، وبالتالي يعيش حياتهم، أي يتقاسم معهم الألعاب والحياة المهنية نفسها (Flandrin Jean-Louis، 1964، ص323)، ولم يكن هناك وعي وتوافق جماعي في هذه الحقبة حول خصوصية مرحلة الطفولة وتميزها عن باقي الفئات الأخرى ـ خصوصا الراشدين، فبمجرد تجاوز الطفل للسنوات الأولى يلج مباشرة عالم الراشدين دون عبور عتبات وقطع أشواط ـ على شكل طقوس المرور تُعلّم مراحل ودورة الحياة، وقد امتد هذا المزج ـ حسب هذا المؤرخ ـ بين الطفل والراشد حتى نهاية القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر، بحيث عرفت هذه الفترة بروز تمييز واضح بين الفئتين، يتجلى في ظهور إحساس اتجاه الطفولة، من خلال تدليل (mignotage) والوعي ببراءتها وهاجس التربية (Flandrin Jean-Louis، 1964، ص324).

أضفى إسهام هذا المؤرخ حول موضوع الطفل والطفولة شرعية ـ بالمعنى العلمي ـ للسوسيولوجيين الفرنكوفونيين، في دراستهم للموضوع نفسه من منظور البناء الاجتماعي، من خلال جرد مختلف الشروط التي أدت إلى خلق مكانة مميزة للطفل في بعض المجتمعات، وأدى اهتمامهم المتنامي بهذا الموضوع إلى انبثاق حقل سوسيولوجيا الطفل ـ في العالم الفرنكوفوني ـ، بالإضافة إلى عوامل أخرى تتعلق بظهور مجموعة من المؤسسات التي تعتني بموضوع الطفل وتربيته، بحيث لم تعد هذه الخاصية حكرا على أعضاء الأسرة فقط كما كان في السابق، بل تم تجاوز هذه الأخيرة وضم أشكال أخرى مثل المدرسة والعدالة (Sirota Regine، 1998، ص11)، وقد تطور الإطار القانوني الخاص بهذه الفئة، ونخص بالذكر الإعلان العالمي للحقوق الطفل سنة 1989، الذي أسهم في نشر توافق حول الطفولة، على الأقل في المجتمعات الغربية (Mekboul Sahra Neyrand Gerard، 2014، ص12)، لكنه في المقابل ساهم وفق تصور الباحث ريكاردو لوكشيني (Riccardo Lucchini) في خلق نموذج خاص بالطفولة في المجتمعات الغربية وجعله معيارا كونيا تتبناه مجموعة من المجتمعات بالرغم من تناقضه ـ أحيانا ـ مع الشكل السائد للطفولة، ومنه نستشف أهمية هذه الشروط المذكورة آنفا في جعل الطفل يحظى

بمكانة مهمة في بعض المجتمعات، أو داخل بعض الطبقات الاجتماعية من نفس المجتمع، وتتجلى هذه المكانة في تشكل وعي جماعي بأهمية هذه المرحلة مع بروز نموذج معياري يحدد ويُعرف الطفل والطفولة، وإذا كانت بدايات تشكل حقل سوسيولوجيا الطفل ارتبطت بالكشف عن العوامل الكامنة وراء اكتساب الطفل لمكانة مهمة داخل الأسرة وفي المجتمع ككل، مع إبراز التمثلات الاجتماعية حول هذه الفئة، فإن الأبحاث الراهنة والمنتمية لنفس الحقل، تميزت بالتنوع من حيث المواضيع المتناولة، كالتركيز على الاختلافات القائمة بين هذه الفئة، على مستوى الجنس وكذا الوسط الاجتماعي الذي ينتمي إليه الطفل، وأدت غزارة الإنتاجات داخل هذا الحقل إلى بلورة وتطوير مجموعة من المفاهيم والمفردات من قبيل "الطفل ـ الفرد" (L'enfant – individu)، وتعني؛ توفر الطفل على مجموعة من الحقوق كغيره من الأفراد، ثم "الطفل المستهلك" (L'enfant- consommateur) وتحيل هذه الأخيرة على خلق حاجيات وسوق للطفل، بفعل العولمة الاقتصادية التي لم تستثن أية فئة أو شريحة اجتماعية، وفي المقابل، نجد مفردة أخرى وهي "الطفل الضحية" (L'enfant victime) (FAPEO rapport، 2008، ص13-14) والتي تستوعب مجموعة من الحالات التي يُنظَر فيها للطفل كضحية لظروف متعددة، وقد يتعلق الأمر بالأطفال في وضعية الشارع أو المنقطعين عن الدراسة أو الأطفال المزاولين لأنشطة مهنية في سن مبكرة.

تتنوع المواضيع المنتمية لهذا الحقل المعرفي ـ سوسيولوجيا الطفل والطفولة، نظرا لاختلاف السياق والواقع الاجتماعي الخاص بهذه الفئة، ومن بين التيمات التي استرعت اهتمام الباحثين ـ خصوصا الدارسين للمجتمعات النامية ـ وهو موضوع الأطفال في وضعية الشارع، ويعتبر هذا الأخير ظاهرة عالمية وحضرية بامتياز، لكونها تغيب بشكل نسبي في المجال القروي، وبالرغم من بُعدها العالمي، بمعنى تواجد الأطفال في وضعية الشارع في العديد من الدول، إلا أن أسبابها تبقى نسبيا محلية كما تثير اهتمام الباحثين من حقول معرفية مختلفة.

أولا. إشكالية الدراسة:

لقد تم تناول موضوع الطفل في وضعية الشارع ـ سوسيولوجيا في المجتمع المغربي من طرف العديد من الباحثين، البعض منهم أمدنا بصورة واضحة عن الأسباب الكامنة وراء تواجد الطفل بصفة دائمة في الشارع، والمتمثلة في الانعكاسات التي ترتبت عن سياسة التقويم الهيكلي التي نهجها المغرب في الثمانيات من القرن الماضي، والتي سعت إلى تحقيق التوازنات الاقتصادية على حساب الخدمات الاجتماعية(محمد مومن، 2010، ص8)، دون إغفال عوامل أخرى منها ما يرتبط بالهجرة القروية نحو بعض المدن المغربية مما أسهم في تكوين أحياء شبه حضرية أو هامشية ينحدر منها هؤلاء الأطفال (عبد الله هرهار، 2009، ص114)، بالإضافة إلى التغير الحاصل في البنية الأسرية داخل المجتمع المغربي، بمعنى الانتقال من أسرة ممتدة تعرف تعايش ثلاثة أجيال تحت سقف واحد إلى أسرة نواتية تضم جيلين، الآباء والأطفال، الأمر الذي أدى إلى حصر التدخل ـ التربية والمراقبة إزاء الطفل في أفراد أسرته الصغيرة.

إلا أن دراستنا لهذا الموضوع تختلف عن مجموعة من الأبحاث ـ سواء المشار إليها سابقا أو غيرها ـ نظرا لابتعادنا أثناء ملامستنا لظاهرة الأطفال في وضعية الشارع عن رصد المحددات

الماكرو والميكرو التي تفيد فهم وتفسير الأسباب الناجمة عن التواجد المستمر للطفل في الشارع، أو الاهتمام بالجانب المؤسساتي، بمعنى التعرف عن كيفية إعادة إدماجهم اجتماعيا من طرف مؤسسات الرعاية الاجتماعية، بل على خلاف هذا؛ انصب اهتمامنا على الطفل وجعلناه وحدة أساسية في تحليل وفهم جزء من هذه الظاهرة، لاسيما وأننا نرمي للإلمام بالدينامية الهوياتية التي يمر منها الطفل ومدى تمفصلها مع أشكال الوصم، وقادنا الهدف من الدراسة التعرف على الدينامية الهوياتية للطفل ـ إلى اعتبار الطفل فاعلا اجتماعيا، بمعنى رصد مختلف الاستراتيجيات التي يتم تطويرها من قبله بهدف تدبير الوضعية التي يعيشها.

أسئلة الدراسة:

ما هي استراتيجيات البقاء المتبعة من قبل الأطفال في وضعية الشارع؟

ما هي العناصر المُسهِمة في تفعيل الدينامية الهوياتية للطفل في وضعية الشارع؟

ما هي أشكال الوصم التي يعرفها الطفل في وضعية الشارع؟

ثانيا. الإطار النظري والمفاهيمي:

لقد تبنينا إطارا نظريا تحليليا في هذه الدراسة وهو التفاعلية الرمزية، ونعلل هذا الاختيار بسببين أساسيين: يتعلق الأول بمحاولة تموقعنا ضمن إطار نظري سوسيولوجي يتلاءم مع طرحنا وكيفية تناولنا لهذا الموضوع، أما السبب الثاني يكمن في السبل والإمكانيات التي يتيحها هذا التوجه النظري لتحليل سلوكات الفرد في بعدها الدينامي، بما أن الفرد يعتبر داخل هذا التيار التفكيري مكونا أساسيا للفهم والتحليل، وقد ساعدنا هذا التموقع النظري على تحليل مختلف التفاعلات التي يقيمها الطفل مع الآخرين(مجموعة الأقران وأفراد المجتمع وموظفين في المؤسسات الاجتماعية والشرطة)، والوقوف عند الكيفية التي ينهجها الطفل في تقديم ذاته للآخرين، وأيضا كيفية إسهام هؤلاء في تغيير تصوره حول ذاته.

يهتم هذا الاتجاه النظري بالعلاقات الملموسة ما بين الأفراد، كما أن العالم الاجتماعي لا يوجد بشكل مسبق على شكل بنية ينبغي التكيف معها، بل يتشكل ويعاد تشكيله باستمرار من خلال التفاعلات التي تتضمن لتأويلات متبادلة تثير تعديلا للفاعلين، وبالتالي يرفض رواد هذا الاتجاه دراسة وتحليل سلوكات الأفراد باعتبارها نتيجة لمكونات خارجية (David Le Breton، 2004، ص6)، بل على خلاف هذا، يقوم هذا التيار النظري على فكرة أساسية مفادها استدماج أفراد المجتمع للنظام الثقافي السائد ضمنه، والذي يبرز في سيرورة التفاعل التي ينجم عنها تشكل هويتهم، فهذه الأخيرة تبنى من خلال التفاعلات التي يقيمها الفرد مع الآخرين، التي تعمل على تعديل التمثل الذي يحملونه عن ذاتهم، ومنه يعتبر هذا التوجه النظري الفرد كفاعل يتفاعل مع المكونات الاجتماعية عوض فرد فاعل (agent) سلبي خاضع للبنيات الاجتماعية بفعل الهابتوس (habitus) أو قوة النسق أو الثقافة التي ينتمي إليها (Le Breton David، 2004، ص46-47).

1.مفهوم الهوية:

لقد تم تعريف هذا المفهوم من وجهات نظر متعددة ومتنوعة، ولعل هذا ما يطرح لدى الباحثين صعوبات أثناء تناولهم واشتغالهم بهذا المفهوم، فضلا عن استيعابه وإحالته على جملة من

المكونات، كالحديث عن الهوية الشخصية والهوية الجماعية والهوية الاجتماعية ثم الهوية الثقافية، إلا أننا في هذه الدراسة اشتغلنا بمفهوم الهوية الاجتماعية، وقد شغل هذا الأخير اهتمام مجموعة من الباحثين في حقل السوسيولوجيا، باعتباره عنصرا أساسيا في فهم سلوك الأفراد، ونعرض في هذا الصدد لبعض المقاربات السوسيولوجيا التي تناولت هذا المفهوم من زوايا مختلفة.

المنظور الدوركايمي: ميز السوسيولوجي الفرنسي إميل دوركهايم (E .Durkheim) بين الهوية الفردية والهوية الاجتماعية، لكنه في المقابل لم يعمل على توضيح الاختلافات القائمة بينهما من خلال تبيين هذا الفرق وتطعيمه بمعطيات ميدانية مستقاة من الواقع الاجتماعي الذي عاصره، وما يسميه دوركهايم بـ "الكائن الاجتماعي" هو نتاج للتربية، بمعنى"تنشئة اجتماعية ممنهجة للجيل الشاب"، وبهذا تصبح الهوية الاجتماعية نتيجة لعملية تمرير مجموعة من العناصر تشمل: المعتقدات الدينية وممارسات أخلاقية وتقاليد وطنية أو مهنية وآراء جماعية، وهذا التمرير الممنهج يخص الطفولة ويكتمل ـ وفق تصور دوركهايم مع ولادة ثانية تتعلق بـ "كائن اجتماعي"(Dubar Claude،1992، ص505-506)، وباختصار، فالطرح الدوركايمي للهوية الاجتماعية يقوم على عنصر أساسي وهو التنشئة الاجتماعية التي يتلقاها الفرد من طرف مجموعة من المؤسسات المتواجدة في المجتمع والتي تتولى هذه المهمة، وتم تجاوز هذا الطرح نظرا لانتماء الفرد لمجموعة من العوالم الاجتماعية، وهذا الانتماء يكسبه هويات اجتماعية متعددة، وفي بعض الأحيان متقاطعة، ولعل هذا ما يدافع عنه مؤيدي الطرح المتعدد للهوية في مقابل التوجه الذي يعتبرها وحيدة (unique).

المنظور الفيبري: تقوم هذه المقاربة في تناولها لمفهوم الهوية الاجتماعية على استحضار الفعل الاجتماعي الصادر من طرف الفرد، والدور الذي يلعبه في تشكل الهوية، لكونها تعتبر هوية الفاعلين الاجتماعيين عبارة عن تأثيرات نابعة من أنساق الفعل، وبهذا تصبح هوية هؤلاء نتيجة مؤقتة لدينامية، ومن ثمة فهذه المقاربة تؤكد أهمية التفاعل القائم بين الأفراد، وإسهامه في إنتاج دلالات ومعاني ذاتية يُسهِم الفاعلون الاجتماعيون في بلورتها وإضفائها على فعلهم الموجه للآخر (Dubar Claude، 1992، ص508).

منظور بير بورديو: يختلف هذا المنظور عن التقليدين السابقين لكونه يرجع عملية بناء الهوية من طرف الأفراد إلى السيرورة الاجتماعية، والتي يمكن تحليلها ـ الهوية ـ كنتاج لمجموعة من الشروط الاجتماعية الموضوعية، وأيضا للتطلعات الفردية الذاتية (Dubar Claude، 1992، ص506).

تتضح إذن الاختلافات القائمة بين هذه المقاربات السوسيولوجيا في تناولها لمفهوم الهوية الاجتماعية، ويرجع هذا الاختلاف إلى تموقع كل باحث ابستمولوجيا، فإذا كان الطرح الدوركايمي يقوم على فكرة أهمية الدور الذي يلعبه المجتمع ـ عن طريق مؤسساته ـ في تشكيل هوية أفراده، فإن الطرح الثاني يركز على الفرد باعتباره فاعلا اجتماعيا ينتج أفعالا اجتماعية موجهة للآخر تسهم في بناء هويته، في حين تدمج المقاربة الثالثة عنصرين تعتبرهما أساسين في تشكيل هوية الفرد، وهما المجتمع والفرد ـ الفاعل (agent) حسب تعبير بيير بورديو، ولا يمكن

اختزال تعريف هذا المفهوم (الهوية الاجتماعية) في هذه المقاربات دون الإشارة إلى الإسهام الكبير الذي قدمه السوسيولوجي إرفنغ غوفمان (Erving Goffman) من خلال تمييزه بين الهوية الافتراضية، التي يقصد بها هوية من أجل الآخر، في مقابل هوية اجتماعية حقيقية، بمعنى هوية من أجل الذات (Goffman Erving، 1975، ص12)، والتي تتشكل ـ الهوية الاجتماعية وفق منظور هذا الباحث من خلال التفاعلات التي يقيمها الفرد، بحيث يعتبر التفاعل عنصرا مهما في بناء وإعادة بناء الهوية الاجتماعية.

حصر غوفمان مفهوم الهوية الاجتماعية في التمثل الذي يحمله الفرد حول ذاته، ويشهد هذا الأخير تطورا وتغيرا مستمرا لكونه مشروطا بالتفاعلات التي يقيمها الفرد، ومنه يدمج هذا الباحث بين الهوية والتمثل الذي نحمله حول ذواتنا، بحيث تصبح الهوية الاجتماعية تحيل على التصور الفرد حول ذاته، والذي يرجع في الأصل إلى تصورات وتمثلات الآخرين حوله، التي تقوم بتعديلات على المستوى الهوياتي الخاص به، وبالتالي تُسهم في تشكيل تصور جديد حول ذاته.

2.مفهوم الوصم:

يحيل مفهوم الوصم على مجموعة من الخصائص والميزات التي يُنظر إليها من طرف أعضاء المجتمع كما يقيمونها بشكل سلبيي، وقد تناول إرفنغ غوفمان (Erving Goffman) هذا المفهوم في كتابه الشهير الذي يحمل عنوان: "الوصم الاستعمالات الاجتماعية للإعاقات" (Stigmate les usages sociaux des handicaps) بحيث عمل على تحديد مفهوم الوصم والكشف عن طبيعته وأشكاله واستراتجياته، وعرف هذا الباحث الوصم بأنه تلك السمة السلبية التي تطلق على الفرد (Goffman Erving، 1975، ص13)، وتتضمن دلالة سلبية من منظور أفراد المجتمع، وبهذا يصبح الفرد الحامل لهذه السمة أو سمات يعيش تمييزا وإقصاء لكونه يصنف ضمن خانة الأشخاص غير العاديين (الموصومين)، نظرا للتداول الاجتماعي السلبي لهذه الخصائص، وهذا ما يجعل الشخص الحامل لهذه السمات مصنفا ضمن الفئات الموصومة فضلا عن توفره على هوية اجتماعية غير مرغوب فيها، وقد ميز هذا الباحث بين ثلاثة أنواع من الوصم (Rogel Thierry، 1997، ص54):

النوع الأولى: الوصم الجسدي الناجم عن شكل وهيئة الجسد، كالإعاقة الجسدية.

النوع الثاني: الوصم المتعلق بالخصائص الفردية، أو بماضي الأفراد، كالفئات التي تعاني من أمراض عقلية أو مدمني الكحول أو السجناء.

النوع الثالث: الوصم القبلي يرتبط بالعرق أو الدين أو الجنسية، كما أنه يمرر عبر الأجيال.

وقد تمت إعادة بناء هذا المفهوم الوصم كنتيجة لتوظيفه المكثف من طرف مجموعة من الباحثين، بحيث أصبح يستوعب جوانب متعددة من الواقع الاجتماعي المدروس من طرفهم، كربطه ببعض الأمراض الفيزيولوجية أو العقلية أو بالفقر والإقصاء الاجتماعي والبطالة، ويرجع تعدد واختلاف الوضعيات التي يتم ربطها بالوصم باختلاف المعايير والمثل والقيم بين المجتمعات والتي تُسهم في رسم الحدود بين ما هو عادي الفئات والأفراد العاديين وما يشكل انحرافا عن هذه المعايير بمعنى الفئات الموصومة ولعل هذا ما يفسر أن الأشخاص الموصومين في مجتمع ما، قد

لا تشكل تلك السمات أو الخصائص التي جعلت منهم كذلك في مجتمع آخر الذي لا يدرج هذه السمات ضمن إطار غير عادي أو غير مألوف ويقيمها اجتماعيا على أنها انحراف عن المعايير والقيم السائدة.

3.مفهوم "الطفل في وضعية الشارع":

إن تحديد مفهوم "الطفل في وضعية الشارع" يثير صعوبات كبيرة نظرا لتداوله واستعماله المكثف من طرف العديد من الفاعلين، كوسائل الإعلام والقطاعات الحكومية وغير الحكومية، مما أدى إلى بروز تعريفات متعددة ومختلفة أحيانا لنفس المفهوم، نظرا لاختلاف وجهات النظر بين مستعمليه، وبالتالي انبثاق فهم متعدد ومختلف لهذه الفئة كل من موقعه، إلا أننا حاولنا التعامل بحذر مع هذا المفهوم، وهذا الحذر ناجم بالأساس عن كثرة تداوله، وأيضا عن الرؤية السوسيولوجية المشكلة حول موضوع الطفل.

أشرنا سابقا أن بروز موضوع الطفل ضمن هذا التخصص ـ السوسيولوجيا ـ ارتبط بمجموعة من الشروط التي أسهمت في إكسابه مكانة مزدوجة، بمعنى في المجتمع ووسط الجماعة العلمية، وبالرغم من أن الملامسة الحديثة لموضوع الطفل إلا أنه لا ينبغي غض النظر وتجاهل تطرق بعض السوسيولوجين المؤسسين لنفس الموضوع، كالتعريف الذي قدمه كل من دوركهايم وبويسون (Durkheim.Buisson) للطفولة باعتبارها مرحلة النمو، بمعنى مرحلة لم ينمو فيها الطفل بعد على المستوى الفيزيولوجي والأخلاقي (Sirota Regine، 1998، ص10)، وبهذا تحيل الطفولة على التكوين الأخلاقي للطفل الذي يتجلى في تربيته وتعليمه وفق القيم والمعايير الخاصة بمجتمعه.

في حين، يُعرف مفهوم الطفل في وضعية الشارع سواء بالاستناد على أبعاد تحليلية، بمعنى التركيز على المحددات الكامنة وراء تواجد الطفل في الشارع وتحليلها، مما يسهم في بلورة تعريف تحليلي، أو على خلاف هذا يتم اللجوء إلى أبعاد وصفية لإنتاج تعريف ذو ميزة توصيفية يضم خصائص المعيش اليومي الخاص بهذه الفئة، وقد عمل الباحث ريكاردو لوكشيني (Riccardo Lucchini) على بلورة نموذج مثالي خاص بالأطفال في وضعية الشارع بالاستناد إلى معطيات ميدانية، يهدف من خلاله فهم العلاقة التي تربط الطفل بفضاء الشارع الذي يتواجد فيه، وهذا النموذج عبارة عن نسق (طفل-الشارع) يضم تسعة أبعاد تتفاعل فيما بينها، وهي كالآتي: الفضاء، الزمن، تناقض شارع/أسرة، البعد العلائقي الاجتماعي (sociabilite)، الأنشطة في الشارع، تنشئة اجتماعية/ ثقافة فرعية، هوية، محفزات، النوع (Riccardo Lucchini، 1998، ص350-351)، والملاحظ أن هذا النسق الذي يحتوي على تعريف ضمني للطفل في وضعية الشارع يقدم للباحثين أداة وصفية وتحليلية لرصد معيش وتجربة هؤلاء الأطفال في الشارع دون فصلها عن وضعيتهم السابقة، بمعنى في أسرهم، كما يمكن الاستناد إلى هذا النسق (طفل-الشارع) بغية فهم المحددات الكامنة وراء التواجد المستمر للطفل في الشارع، بما أنها قد تشكل عوامل كابحة لامتناع خروج الطفل من هذا الفضاء.

ثالثا. منهجية الدراسة:

اعتمدنا في هذه الدراسة حول الدينامية الهوياتية للطفل في وضعية الشارع وأشكال الوصم على المنهج الكيفي، وبشكل خاص على مقابلات نصف موجهة مع مجموعة من الأطفال في وضعية الشارع بمدينة الرباط، ويرجع سبب اختيارنا لهذه التقنية دون غيرها إلى جملة من الأسباب، منها ما يتعلق بالأهداف المتوخاة من هذا البحث والتي حصرناها في التعرف على الدينامية الهوياتية للطفل وكيفية تمفصلها مع أشكال الوصم إزاءه، وبهذا قادتنا طبيعة موضوعنا وهدفه إلى اعتماد هذه التقنية ـ المقابلة النصف الموجهة بغية جمع المعطيات الميدانية.

لم نتقيد بأسئلة موجهة ومصاغة مسبقا، بل عملنا على وضع مجموعة من الأسئلة نصف مفتوحة في دليل المقابلة، ومرد ذلك توسيع هامش حرية التعبير للمشاركين في الدراسة في إطار الأسئلة المطروحة عليهم، علاوة عما سبق فقد اشتغلنا بدليل مقابلة ذو خاصية دينامية، بمعنى عملنا على إضافة مجموعة من الأسئلة إلى دليل المقابلة برزت أثناء قيامنا بالمقابلات، وقد سمحت لنا هذه التقنية بالإجابة عن الأسئلة المطروحة في هذه الدراسة، بحيث أنجزنا أربع مقابلات مع أطفال ذكور ومقابلة واحدة مع طفلة[1]، واستند انتقاؤنا للمشاركين على مجموعة من المعايير من بينها: السن؛ حيث حصرنا هذا الأخير في أربعة عشر سنة وحرصنا على أن لا يتجاوز الطفل هذا السن، بالإضافة إلى معيار آخر يتعلق بالإقامة المستمرة في الشارع، أي الطفل المتخذ من فضاء الشارع مكانا للعيش الدائم بدل اعتباره مجالا لممارسة بعض الأنشطة (كالتسول والتجارة) والعودة مساء إلى أسرته.

من بين الخصائص المميزة للمشاركين في هذه الدراسة هو اختلاف أعمارهم، بحيث تعمدنا عدم توحيد السن، بغية جعله عاملا تفسيريا لسلوك الطفل ونظرة أفراد المجتمع إليه، والخاصية الثانية ترتبط بالمدة التي قضاها الطفل في الشارع، باعتبارها عنصرا مفسرا لمجموعة من المهارات والاستراتيجيات المبلورة من قبل هذه الفئة، وقد قمنا بعقد مقارنات بين المشاركين مستندين إلى تباين مدة عيشهم في الشارع.

خصائص المشاركين:

	الجنس	السن	مدة الإقامة في الشارع
المشاركة رقم (1)	أنثى	13 سنة	سنة واحدة
المشارك رقم (2)	ذكر	10 سنة	ستة أشهر
المشارك رقم (3)	ذكر	12 سنة	سنتان
المشارك رقم (4)	ذكر	12 سنة	أربعة أشهر
المشارك رقم (5)	ذكر	14 سنة	سنة وبضعة أشهر

اعتمدنا على التحليل الموضوعاتي للمعطيات الميدانية المحصل عليها، وعملنا على تفكيك المتون المجمعة الخاصة بكل مشارك، ووضع الموضوعات التي برزت من داخل هذه المتون في

[1] كنا نرغب في إجراء مقابلات أخرى مع طفلات في وضعية الشارع إلا أننا لم نصادف إلا طفلة واحدة أثناء ترددنا على شوارع مدينة الرباط بغية القيام بالبحث الميداني، وهذا يرجع في اعتقادنا إلى العدد القليل للطفلات اللواتي

جداول تركيبية تضم كل من التيمات البارزة وأجوبة المشاركين في هذه الدراسة، وتم تحليل هذه التيمات ومتنها بالاستناد إلى مقولات نظرية، كما قمنا بتحليل عرضاني بغية الوصول إلى الخصائص المشتركة/المختلفة بين المشاركين.

رابعا. الطفل واستراتيجيات البقاء:

اعتبرنا الطفل في وضعية الشارع فاعلا اجتماعيا يطور مجموعة من الاستراتيجيات لتدبير الوضعية التي يعيشها، وبهذا نكون قد جانبنا المنظور الذي ينزع من الطفل هذه الخاصية ويجعله فردا سلبيا اتجاه المشاكل والصعوبات التي يواجهها داخل هذا الفضاء، على خلاف هذا تبين أن الطفل في وضعية الشارع يبلور مجموعة من الاستراتيجيات التي تصبح جزء لا يتجزأ من طبيعة معيشه اليومي، سواء للحصول على قوته أو المواد المخدرة التي يستهلكها أو الدفاع عن نفسه لصد مجموعة من المخاطر التي تصادفه في فضاء الشارع.

ومن خلال المقابلات التي أجريناها، اتضح لنا أن لكل طفل استراتيجياته الخاصة في تلبية احتياجاته، والملاحظ أنها مشتركة بين البعض، بحيث يشكل نشاط التسول خاصية يتقاسمها جميع المشاركين للحصول على حاجياتهم من مأكل وملبس وعلاج، بالموازاة مع هذا النشاط، يتم أيضا نهج طرق أخرى للحصول على الموارد، كبيع المناديل أو تقديم خدمات مقابل السجائر أو مبلغ مالي زهيد.

وتُفسَّر هذه الدينامية في الأنشطة التي يمارسها الطفل من خلال خصائص المجال الذي يتواجد فيه، بمعنى يصبح الحيز المجالي محددا للأنشطة التي يزاولها الطفل كما هو الشأن بالنسبة للمشارك (رقم5 انظر الجدول) الذي يقوم بمساعدة المسافرين على حمل أمتعتهم مقابل مبلغ مالي، فهذا الطفل يمارس هذا النشاط نظرا لتواجده بصفة شبه دائمة بالقرب من محطة الحافلات، على خلاف المشارك (رقم2) الذي يقوم باقتناء المناديل والتوجه إلى أحياء معينة لبيعها (كحي أكدال وحي الرياض)، فاختياره لهذه الأحياء دون غيرها يرجع إلى خصائصها، أي كونها نقط جذب للأفراد نظرا للمراكز الترويحية والتجارية التي تتوفر عليها.

ومنه نستشف أن لخصائص المجالات، بمعنى الموارد التي تتيحها للطفل، دورا حاسما في جذبه أو تواجده فيها، هذه الموارد قد تكون مادية، بيع مناديل أو خدمات أو التسول، وكذلك رمزية، أي خلق علاقات اجتماعية مع بعض الأفراد في الشارع، كما هو الشأن بالنسبة لهذا المشارك (رقم 3) الذي استطاع نسج علاقات مع بعض أصحاب المقاهي والصيدليات، يقدمون له الأكل والأدوية عند مرضه، ويكمن المحدد في تشكيل شبكة علائقية داعمة في المدة التي قضاها هذا المشارك في الشارع والتي تقارب سنتين، بحيث استطاع من خلالها خلق علاقات اجتماعية ساندة.

لاحظنا كذلك مدى صعوبة حصول الطفل على الموارد من أكل وملبس والمواد المخدرة التي يستهلكها، كما هو الحال بالنسبة لهذا المشارك (رقم4) الذي كشف عن العراقيل التي يواجهها بغية حصوله على الموارد التي يحتاجها، تجعله ينتقل من نشاط التسول إلى نشاط آخر عندما لا

يعشن بشكل مستمر في الشارع بالمقارنة مع الأطفال الذكور، بحيث معظمهن يتخذن من الشارع فقط مكانا للقيام بأنشطة (مثل التسول أو بيع المناديل) طيلة النهار والعودة مساء إلى أسرهن.

يتوفر على أي مورد، كمساعدة تجار السجائر بالتقسيط مقابل مبلغ مالي بسيط، ويمكن تفسير هذه الصعوبة التي يواجهها هذا الطفل بالمدة التي قضاها في الشارع والتي لا تتجاوز بضعة أشهر، بمعنى أنه لم يكتسب بعد مجموعة من المهارات التي تمكنه من توفير حاجياته، على خلاف باقي المشاركين الذين استطاعوا اكتساب مهارات بحكم مدة تواجدهم في الشارع.

وتتجلى هذه المهارات التي يكتسبها الطفل في خلق شبكة اجتماعية داعمة وتطوير قاموس لغوي يضم ألفاظ وتعبيرات يستعطف بها أفراد المجتمع ويستجديهم، وقد تطرق السوسيولوجي ريكاردو لوكشيني (Riccardo Lucchini) للمهارات التي يطورها الطفل في وضعية الشارع والتي تتعلق بالبقاء، وعلى رأسها فن التدبير (debrouille) والتفاوض (Riccardo Lucchini، 2001، ص78)، بحيث تعتبر القدرة على التفاوض عنصرا حاسما في حصول الطفل على المساعدة، وتكتسب هذه المهارة كلما قضى الطفل مدة طويلة في الشارع، كما تعد هذه الأخيرة محددا في تطويره لمهارة تدبير وضعية الشارع، والتي تتجلى في العثور على مكان آمن للنوم (الذي يمكن تغييره حسب الأوضاع) وموارد أخرى.

ومن دون شك فإن لجنس الطفل خصوصياته، ويتضح هذا في مجموعة من الاستراتيجيات التي تتبعها المشاركة (رقم1) للحصول على الموارد وأيضا مواجهة المشاكل التي تتعرض لها في فضاء الشارع، والتي تختلف طبيعتها وحدتها حسب جنس الطفل، وتزاول هذه الطفلة نشاط التسول لكسب الموارد التي تحتاجها، ومنه تقاسمها النشاط نفسه وباقي الأطفال، إلا أنها تختلف عنهم في اختيارها لفضاء معين (حي أكدال) داخل مدينة الرباط، تمارس فيه جميع أنشطتها من تسول وأكل ونوم، بمعنى أن حركيتها محصورة في هذا المجال على خلاف الأطفال الآخرين، ويمكن تفسير عدم تنقل هذه الطفلة بين مجالات مدينة الرباط بالتمثل الذي تحمله حول هذا الحي (أكدال)، بحيث تعتبره مكانا آمنا تقطنه طبقة اجتماعية ميسورة مما يمكنها من الحصول على الموارد بسهولة.

وتواجه هذه الطفلة مجموعة من المشاكل والتي يرجع أصلها إلى طبيعة جنسها، ولعل من أبرزها المحاولات المتكررة للتحرش بها وكذا الاعتداء عليها جنسيا، سواء من طرف الأطفال المتواجدين في الشارع أو أفراد آخرين، ولصد هذه المحاولات تنهج هذه المشاركة مجموعة من الاستراتيجيات من قبيل: وضع وشاح فوق رأسها وارتداء جلباب أثناء قيامها بالتسول، ويعتبر هذا الأسلوب في اللباس إستراتيجية لإخفاء جميع معالم الأنوثة[2]، التي قد تشكل حسب هذه المشاركة مثيرا قد يجذب محاولات الاعتداء عليها جنسيا.

يمكن تلخيص تطوير استراتجيات البقاء المتبعة من قبل الأطفال في وضعية الشارع في مجموعة من المحددات التي تم استنتاجها من خلال هذه الدراسة، بحيث عملنا على وضع هذه المحددات المتوصل إليها في خطاطة تفسيرية، وهي كالآتي:

[2] معالم الأنوثة حسب المعايير السائدة في المجتمع المغربي.

هاجر بوزيد، 2018

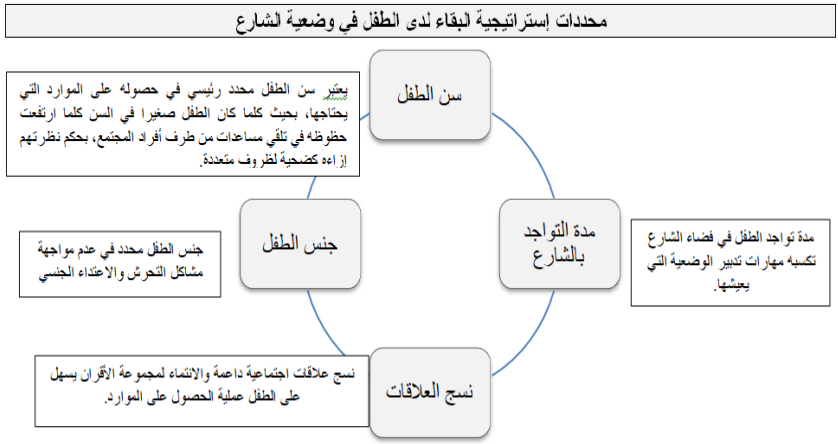

خامسا. الدينامية الهوياتية للطفل:

نقصد بالدينامية الهوياتية هي تلك السيرورة التي تدمج عملية تفكك تصور حول الذات وبناء في المقابل تصور جديد، ولرصد هذه الدينامية الهوياتية عند المشاركين لابد من الوقوف عند العوامل المُسهمة في تفعيلها، والتي ترتبط بتغيير إطار العيش ليصبح فضاء الشارع، فهذا العنصر يشكل منعطفا بيوغرافيا في المسار الشخصي للطفل، كما يترتب عنه تفكك التصور الذي يحمله الطفل حول ذاته، ومنه فهذه الدينامية الهوياتية ناجمة بالأساس عن اتخاذ الطفل من فضاء الشارع مكانا للعيش المستمر، بالإضافة إلى التفاعلات التي يقيمها مع الآخرين ـ أفراد المجتمع ومجموعة الأقران، التي قد تسهم في بناء وتأكيد أبعاد الهوية الجديدة، بمعنى التصور الجديد حول ذات، باعتبار التفاعل هو تلك اللحظة التي يفقد فيها الفرد استقلالية تصوره والولوج إلى مجال التأثير المباشر واللحظي للأشخاص (Le Breton David، 2004، ص107).

إن تحليل الدينامية الهوياتية الخاصة بالطفل في وضعية الشارع تقتضي الوقوف عند الأبعاد المشكلة لها، والتي يمكن حصرها في ثلاثة أبعاد، يتعلق البعد الأول بتغيير إطار العيش، في حين يرتبط الثاني بالندوب (cicatrices) في أجساد المشاركين، أما البعد الثالث والأخير يتعلق بتأكيد أبعاد الهوية الاجتماعية الجديدة من طرف الآخرين، وتُسهم هذه الأبعاد في رصد وتحليل السيرورة التي يمر منها الطفل، وفيما يلي تفصيل كل بُعد على حدة:

البعد الأول: يُسهم تغيير فضاء العيش ليحل محله الشارع في تحول التصور الذي يحمله الطفل حول ذاته بمقارنته مع تصوره السابق، بمعنى قبل ولوجه للشارع، ليصبح تمثلا يستند إلى مجموعة من النعوت التي يوظفها المشاركون لتعريف ذواتهم من قبيل: **شَمْكَارْ وولد الزنقة**

ومْقَطَّعْ[3]، إلا أن النعت الأكثر تداولا بينهم هو نعت **شَمْكَارْ**[4]، وتستوعب هذه النعوت حمولة ودلالة اجتماعية سلبية، فهذا التصور الذي يحمله الطفل حول ذاته يموقعه ضمن خانة الأفراد المنحرفين عن المعايير الاجتماعية، إلا أن هذا التموقع قبل أن يكون ذاتيا، بمعنى صادرا عن الطفل، فهو نتيجة للتفاعلات التي يقيمها مع الآخرين وأيضا التأويلات التي يقدمها هؤلاء لمختلف المشاهد (Goffman Erving، 1973، ص238) تضم أنشطة يمسرحها الطفل في فضاء الشارع والتي تؤدي حتما إلى تصنيفه ضمن هذه الفئة **شَمْكَارْ** ليصبح فيما بعد تصنيفا ذاتيا يقوم به الطفل.

ومن ثمة، لا يمكن فهم تحول تصور الطفل لذاته بمعزل عن التفاعلات التي يقيمها، ويعد هذا المكون عنصرا أساسيا وتفسيريا لتغيير تمثله حول ذاته، والانتقال من طفل "عادي"[5] إلى "طفل غير عادي"، بمعنى خارج مكانه الطبيعي (الوسط الأسري)، والجدير بالذكر أن الحدود القائمة بين الطفل العادي وغير العادي في المجتمع المغربي هي نتيجة تراكم مجموعة من الشروط التي أسهمت في خلق نموذج معياري مصاغ اجتماعيا لـ"الطفل العادي" بمعنى هو ذلك الطفل الذي يتوفر على روابط أسرية/مؤسساتية، ومن بين الشروط التي أدت إلى بروز هذا النموذج، نشير إلى انخفاض عدد الأطفال للأسرة الواحدة وظهور المدرسة الحديثة التي استأصلت ونزعت هذه الفئة من عالم الراشدين وتعميم التمدرس، بالإضافة إلى ظاهرة التمدن المكثفة التي شهدتها بعض المناطق في السنوات الأخيرة، إلا أن هذه الشروط لم تمس جميع الطبقات الاجتماعية بنفس الوتيرة (Boudoudou Mohamed, Chekroun Mohamed، 1986، ص109-111)، بمعنى أن هناك اختلاف في تعريف هذه الفئة (الأطفال) بين الطبقات الاجتماعية داخل المجتمع نفسه.

البعد الثاني: يعتبر الجسد المكون الأكثر تجسيدا للهوية لكونه يترجمها كما يعكس التصور الذي يحمله الفرد حول ذاته، وقد يسهم في إثبات وتأكيد التحول الهوياتي، وتتوفر أجساد المشاركين في هذه الدراسة على ندوب (cicatrices) سواء على مستوى الذراع أو اليد أو الرجل أو الوجه، وقد يكون هذا الفعل ناجما عن الطفل، خصوصا عندما يكون تحت تأثير المواد المخدرة التي يستهلكها، أو عن اعتداء من طرف أشخاص آخرين، لكن لا تهمنا من الناحية السوسيولوجية حيثيات التعرض للاعتداء أو الكيفية التي اقتُرِف بها هذا الفعل من طرف الطفل، بقدر ما تهمنا الدلالة التي تحملها هذه الندوب، والتي تكمن في التحول الهوياتي.

---

[3] هذه الكلمات باللهجة العامية المغربية يوظفها أفراد المجتمع إزاء الأشخاص الذين يقومون بسلوكات مثل السرقة والعيش الدائم في الشارع واستهلاك المواد المخدرة (وفق تصور المشاركين)، ويتم تقييمها اجتماعيا على أنها انحراف.

[4] شَمْكَارْ: لفظ باللهجة العامية المغربية ذو حمولة اجتماعية سلبية نظرا لارتباطه بمجموعة من الممارسات كاستهلاك المواد المخدرة واتخاذ الشارع مكانا للعيش الدائم، حسب تعبير المشاركين، وتعتبر هذه الممارسات غير مقبولة اجتماعيا كما تتنافى مع المعايير السائدة في المجتمع.

[5] توظيفنا لهذه العبارة ناجم بالأساس عن الوصف الذي قدمه المشاركون في هذه الدراسة عندما طلبنا منهم الحديث وتعريف ذواتهم قبل الولوج إلى الشارع بصفة دائمة، وقد عبروا كالتالي: "كنا أطفال عاديين قبل الولوج والعيش المستمر في الشارع".

فهذه الندوب في أجساد الأطفال تلعب دورا مهما في تفكك تصورهم السابق حول ذواتهم، وبناء تصور هوياتي جديد يتميز بابتعاده عن نموذج الطفل والطفولة في المجتمع المغربي، وبالتالي تجسيده للانحراف بالمعنى الاجتماعي عن هذا المعيار، ويقدم الطفل هذه الندوب بطريقتين مختلفتين حسب محاوريه والوضعيات، بحيث عندما يتعلق الأمر بأفراد المجتمع ينحو الطفل في هذه الحالة إلى إخفائها والاستعانة بخطابات مشحونة بكلمات وعبارات تجعل منه ضحية في أعين الآخرين بهدف إثارة شفقتهم، أو تقديمها كوصمة ونتيجة للظروف التي ألقت به في الشارع، في حين عندما يتعلق الأمر بالمجموعات المتواجدة في الشارع بما فيها مجموعة الأقران، يميل الطفل إلى تقديم الندوب في جسده كدليل على المدة الطويلة التي قضاها في الشارع والتجربة التي خاضها، وبالتالي تصبح مصدر فخر ونزع للاعتراف من طرف هذه المجموعات، ومنه تستوعب هذه العلامات في الجسد دلالة مزدوجة، فهي من جهة تجعل انحرافه ـ بالمعنى الاجتماعي ـ مرئيا وبالتالي تصنيفه ضمن فئة المنحرفين، ومن جهة أخرى تكتسي حمولة إيجابية تتجلى في الاعتراف والوقار الذي تضفيه على صاحبها وسط الجماعات المتواجدة في الشارع.

البعد الثالث: يتم تأكيد أبعاد الهوية الاجتماعية المبنية من طرف الآخر، سواء تعلق الأمر بأفراد المجتمع أو المجموعات المتواجدة في الشارع ـ بما فيها مجموعة الأقران-، ويتجلى هذا التأكيد في تبني الطفل وتوظيفه لمجموعة من النعوت (**شَمْكَارْ وولد الزنقة ومْقَطَّعْ**) الصادرة من طرف هؤلاء لوصف ذاته، كما يتقاسم نفس الهوية الاجتماعية المشكلة مع مجموعة الأقران، ويتضح هذا في توظيف صيغة "**نحن شَمْكَارَ**"، فهذه العبارة تحيل على تصنيف ذاتي يقوم به الطفل ضمن خانة " **شَمْكَارَ**" والذي يعود في الأصل إلى تصنيف ناجم عن الآخر، بحيث يتم استدماجه ليصبح تصنيفا ذاتيا يقوم على جدلية "نحن" في مقابل "هم"، أي تشكيل ورسم حدود فاصلة بين هويتهم الاجتماعية وهوية الآخرين.

فالتصور الذي يحمله الطفل في وضعية الشارع حول ذاته هو تصور يتم التعبير عنه بصيغة "نحن" لتعريف ذاته وأيضا الأطفال الآخرين الذين يعيشون نفس الوضعية، ومن الصعب حصر هذه الهوية الاجتماعية المبنية في إطار سلبي، بالرغم من الحمولة السلبية التي تتوفر عليها مختلف النعوت والألقاب الموظفة إزاءهم، وهذا راجع إلى المقارنات التي يعقدها المشاركون مع باقي الفئات الاجتماعية الأخرى، وذلك من خلال استنادهم إلى قيم وخصائص مقبولة اجتماعيا لتقييم هويتهم، وبهذا تصبح هوية الأطفال في وضعية الشارع تتموقع بين ما هو سلبي وإيجابي حسب المقارنة التي يعقدونها مع الآخر"هم"، وتصير هويتهم الاجتماعية إيجابية عند مقارنتها مع المجموعات الأخرى المتواجدة في الشارع، والتي يطلق عليها المشاركون اسم "**شَمْكَارِا لكبار**"[6]، فتقييمهم الإيجابي لهويتهم يستند إلى مجموعة من الخصائص التي تتوفر عليها كلا المجموعتين، والتي تضم سلوكات وأنشطة داخل فضاء الشارع، بحيث ركز المشاركون على فعل السرقة، باعتبار أن هذه الخاصية تنعدم في مجموعتهم وحاضرة بقوة ضمن المجموعة الأخرى **شَمْكَارِا لكبار** بل تعتبر نشاطها الرئيسي.

[6] يوظف الأطفال هذا اللقب للإشارة إلى مجموعة من الأشخاص الراشدين الذين يتخذون من الشارع مأوى لهم.

وسرعان ما تتحول هذه الهوية الاجتماعية التي يتم تقييمها إيجابيا إلى هوية اجتماعية سلبية خصوصا عندما تتم مقارنة خصائصها مع الآخر "هم" وحصره في فئة الأطفال، بحيث ينطلق المشاركون في عملية التقييم هذه من خصائص تشمل طبيعة معيشهم اليومي ومظهرهم الخارجي وتفكك الرابط الأسري بالإضافة إلى سلوكات أخرى كتعاطيهم للمواد المخدرة، فهذه الخصائص تجعلهم يقيمون هويتهم بشكل سلبي عند مقارنتها بالأطفال الآخرين.

سادسا. أشكال الوصم واستراتيجياته:

يعتبر الطفل في وضعية الشارع موضوعا للوصم يتجلى في الألقاب والنعوت التي يوظفها أفراد المجتمع لوصف هذه الفئة، فضلا عن استيعابها لدلالة اجتماعية سلبية فهي تعكس أيضا النظرة الموصومة التي يحملها هؤلاء إزاء الأطفال، وبالتالي تُسهم في تصنيفهم ضمن خانة الأطفال غير العاديين، بالنظر للمعايير والقيم المبنية اجتماعيا والتي ترسم الحدود بين الطفل العادي والطفل غير العادي، بحيث يستدمج الأطفال هذه النعوت والتصنيفات الصادرة من طرف الآخر، ويتجلى بشكل واضح في توظيفها للمناداة بين بعضهم البعض، بمعنى هناك تطبع معها، ويمكن تفسير هذا التطبع باعتباره نتيجة لسيرورة التنشئة الاجتماعية التي خضعوا لها وبالرغم من عدم اكتمالها، إلا أنهم تلقوا أثناء تواجدهم مع أسرهم مجموعة من المثل والقيم التي تُسهم في خلق حدود بين الفئات والممارسات المقبولة اجتماعيا، مما يقودهم إلى استدماج هذه النظرة الموصومة والتطبع مع النعوت الموجهة نحوهم، ولعل هذا ما يجعلهم يدافعون عن فكرة كونهم أطفال غير عاديين، واستبطانهم لهذه الفكرة يقودهم إلى تطوير استراتيجيات تعد قاسما مشتركا بينهم.

ويكمن الهدف من هذه الاستراتيجيات المتبعة في التقليل من حدة الوصم الصادر من طرف الآخر والمتبنى من قبل الأطفال، بحيث ينهج هؤلاء إستراتيجيتين: ترتبط الأولى باختيار فضاءات معينة للعيش، لكون انتقاء الطفل لمكان دون آخر يحتكم إلى الموارد التي يتيحها الحيز المجالي، ومن بينها البحث عن فضاء لا يُسهم في مضاعفة الوصم الذي يحمله، وبالرغم من دينامية الطفل في الشارع بمعنى عدم استقراره في مكان معين إلا أن حركيته في المجال العام مشروطة بالموارد التي يتيحها وكذا تمثله للفضاءات والأفراد المترددين عليها، بحيث يعتبر تمثل الطفل للمجال محددا حاسما في الاستقرار فيه.

وتتضمن شهادات جميع المشاركين لألفاظ من قبيل **"نقية ونظيفة"** لوصف خاصية الحيز المجالي الذي يشغلونه والذي يتم تملكه من قبلهم[7]، وفي المقابل يتم وصف الفضاءات الأخرى غير المتردد عليها داخل نفس المدينة بتوظيف لفظ **متسخ**، فتقطيع فضاءات المدينة بتوظيف هذين اللفظين (نظيف/متسخ) يعكس تصوراتهم للمجلات والأفراد المترددين عليها، وهذا ما يجبرهم على الابتعاد عن المجالات التي يتمثلونها بشكل سلبي والتي قد تضاعف وصمهم، بمعنى

[7] تبين لنا، أن جميع المشاركين في هذه الدراسة يتملكون الحيز المجالي الذي يخصصونه للنوم، ويتجلى هذا التملك في ما هو مادي، بمعنى وضع الأغراض الخاصة بهم في هذا المكان، كما لا يمكن أن يشغله شخص آخر إلا في حالات نادرة، وأيضا على المستوى الرمزي أي بناء علاقة حميمية مع هذا المكان.

الوصم الذي يحملونه ووصم المجال، وفي المقابل ينقب الطفل على فضاء غير موصوم وفق تمثله ـ للتقليل من حدة الوصم الذي يحمله.

أما بالنسبة للإستراتجية الثانية والتي يمكن استنتاجها من خلال الوقوف عند الوضعيات التفاعلية التي تجمع بين الأطفال وأفراد المجتمع، بحيث يوظف المشاركون خطابا يجعل منهم ضحايا لظروف متعددة من بينها تفكك الرابط الأسري ووضعية الفقر التي يعيشونها، وتحليل هذا الخطاب الموظف من قبلهم يجعلنا نرصد مجموعة من الألفاظ والعبارات التي يتضمنها والتي يرجو الأطفال من خلالها إثارة شفقة الآخرين والتقليل من حدة النظرة الموصومة الصادرة من طرفهم، ومنه يوظف هذا الخطاب بغية الحصول على الموارد التي يحتاجونها (النقود أو الأكل أو السجائر) وأيضا كسلوك يرجى منه كسب تعاطف الآخر مع الوضعية التي يعيشونها، ويمكن تفسير هذه الإستراتيجية التي ينهجها الطفل في وضعية الشارع من خلال الاستعانة بتصور إرفنغ غوفمان حول الاستراتيجيات التي يطورها الأفراد الموصومون بغية عدم إقصائهم من المحيط الاجتماعي، ومن بين هذه الاستراتجيات اللجوء إلى فكرة الضحية لكي يحظى بتعاطف الأفراد "العاديين" (Thierry Rogel، 1997، ص57)، وينهج الأفراد الموصومون هذه الإستراتيجية، أي تبني وكذا الدفاع عن كونهم ضحايا، بغية تغيير تموقهم وأيضا النظرة الموجهة إليهم، لكي تصبح نظرة شفقة تتيح لهم إمكانية الاندماج في المحيط الاجتماعي عوض النظرة الموصومة التي تقصيهم من مجالات الحياة الاجتماعية.

خاتمة:

تم تحليل وفهم من خلال هذه الدراسة الميدانية الدينامية الهوياتية للطفل في وضعية الشارع، والتي نعني بها تفكك تصوره السابق حول ذاته قبل ولوجه للشارع ـ وتشكل هوية اجتماعية جديدة، بحيث تم تحليل هذه السيرورة عبر رصد المكانيزمات الكامنة وراء تفعيلها، والتي ترتبط بمجموعة من المكونات المسهمة في بناء تصور جديد حول ذات طفل، ومن بينها؛ تغيير فضاء العيش وتعويضه بالشارع، ويعتبر هذا الحدث عنصرا مهما في تفكك تصور الطفل حول ذاته، فضلا عن إسهامه في تفعيل دينامية هوياتية ناجمة بالأساس عن هذا الإطار الجديد للعيش وأيضا التفاعلات التي يقيمها الطفل مع الآخرين (مجموعة الأقران والمجموعات المتواجدة في الشارع وأفراد المجتمع)، وينجم عن هذه الوضعيات التفاعلية التي يكون الطفل طرفا فيها تبنيه للتعريف الصادر من قبلهم، وهذا التعريف لا يتفاوض الطفل بشأنه على اعتبار أنه يعي جيدا تماثله مع الوضعية التي يعيشها، لهذا نجده ينطلق من النعوت والألقاب (**شَمْكَار**) الموظفة إزاءه لتعريف ذاته.

وقد توصلنا من خلال هذه الدراسة إلى العوامل المسهمة في نقل التصور الصادر من طرف الآخر وجعله تصورا متبنى من قبل الطفل، ومن بينها وعيه بتطابق هذا التصور مع الخصائص التي يحملها، والمتمثلة في الندوب في جسده وسلوكاته داخل فضاء الشارع، ولا تقف سيرورة تشكل هوية الطفل عند تبنيه للتعريف الصادر عن الآخر، بل على خلاف هذا يتم تأكيد أبعاد الهوية الاجتماعية المبنية من طرف الآخرين، وقد تبين لنا أنه من الصعب حصر هذا التصور المبني في إطار سلبي أو إيجابي، لكونه يشترط بالمقارنات التي يعقدها الطفل، بحيث تصبح

هويته إيجابية عندما يقارن خصائصها مع المجموعات المتخذة من فضاء الشارع مكانا للعيش المستمر، خصوصا الراشدين منهم **"شمكارة لكبار"**، وذلك باستناده إلى مجموعة من الخصائص التي يتم تقييمها ـ اجتماعيا ـ بشكل إيجابي، وبالتالي فاختلاف خصائص هويتهم تجعل الطفل يثمن تصوره حول ذاته ويقيمه إيجابيا، إلا أنها تصير سلبية ـ الهوية الاجتماعية ـ عندما يقارن المشاركون خصائصها مع الأطفال "العاديين".

تأسيسا عما سبق، تبين لنا أن الطفل في وضعية الشارع يشكل موضوعا للوصم نظرا لانحرافه عن النموذج المبني اجتماعيا للطفل والطفولة في المجتمع المغربي، ويترجم هذا الوصم في نظرة أفراد المجتمع وسلوكاتهم إزاء هذه الفئة، ويعد استدخال الطفل لهذه النظرة الموصومة عنصرا مهما في تطويره لاستراتيجيات ترمي إلى التقليل من حدة الوصم، عوض إخفائه لكون جميع معالم انحرافه باتت مرئية، ومن بين هذه الاستراتيجيات تنقيب الطفل على فضاءات غير موصومة**"نقية"** وفق تمثله، والتي تزيح احتمال مضاعفة الوصم، بمعنى الوصم الذي يحمله ووصم المجال، بالإضافة إلى بلورته لخطاب يعرض فيه وضعيته كنتيجة لظروف متعددة وخارجة عن إرادته، وذلك بهدف التفاوض حول النظرة الموصومة الصادرة عن الآخرين والتقليل من حدتها.

وقد تعرفنا من خلال هذه الدراسة على مختلف الاستراتيجيات المطورة من طرف الأطفال في وضعية الشارع، سواء تعلق الأمر باستراتيجيات البقاء، والتي تحتكم إلى محددات من قبيل: سن الطفل ومدة تواجده في الشارع ونسج علاقات اجتماعية داعمة داخل نفس الفضاء ثم جنس الطفل، وتعتبر هذه المحددات المشار إليها عنصرا حاسما في تدبير الطفل لوضعية الشارع، بما فيها الحصول على الموارد التي يحتاجها وأيضا صد مختلف المشاكل والصعوبات التي تعترضه داخل فضاء الشارع، كما تم تسليط الضوء على الاستراتيجيات التي ينهجها المشاركون في الدراسة بغية التقليل من حدة الوصم، بحيث يطور هؤلاء إستراتيجيتين، ترتبط الأولى باختيار فضاءات للعيش غير موصومة وفق تصورهم، في حين تتعلق الإستراتيجية الثانية بتطوير خطاب يرجى من خلاله استعطاف أفراد المجتمع، ويكمن الهدف من جرد هذه الاستراتيجيات في تسليط الضوء على جانب مهم أغفل في العديد من الدراسات والأبحاث يكمن أساسا في ملامسة هذا الموضوع باعتبار الطفل فاعلا اجتماعيا، مع الوقوف عند كيفية تدبيره لوضعية الشارع التي يعيشها والتي تقوده إلى تطوير مجموعة من الاستراتيجيات، فجل الدراسات السابقة تناولت الأسباب الملقية بالطفل في الشارع ومختلف المشاكل التي تعترضه داخل هذا الفضاء، وبالتالي جعلت منه سواء بشكل ضمني أو صريح ـ ضحية لمجموعة من الشروط المتظافرة، كما سلبته إمكانية الفعل.

قائمة المراجع:

1. مومن محمد(2010)، ظاهرة أطفال الشوارع بالمغرب دراسة ميدانية، ط2، طوب بريس، الرباط، المغرب.

2. هرهار عبد الله(2009)، من التشرد إلى الانحراف: سوسيولوجيا الطفل في وضعية الشارع، مجلة إضافات، ع8، تصدر عن: مركز دراسات الوحدة العربية.

3. Chekroun, Mohamed et Boudoudou, Mohamed(1986), Définition Sociale de l'enfance et de l'enfant : condition sociales de production de la légitimité

sociale de la mise au travail des enfants au Maroc, Revue Bulletin économique et sociale du Maroc, N157, Maroc.
4. David, Le Breton(2004), l'interactionnisme symbolique, 1ere Édition, PUF, Paris, France.
5. Dubar, Claude(1992), Formes identitaire et socialisation professionnelle, Revue française de sociologie, Vol 33, N33-4.
6. Flandrin, Jean-Louis (1964), Enfance et société, Ph. Ariès, *L'enfant et la vie familiale sous l'ancien régime*, Revue *Annales. Economies, Sociétés, Civilisations*, N2.
7. Goffman, Erving(1973), la mise en scène de la vie quotidienne la présentation de soi, les Editions de Minuit, Paris.
8. Goffman, Erving(1975), Stigmate les usages sociaux des handicaps, Les Editions de Minuit, Paris.
9. Lucchini, Ricardo(1998), L'enfant de la rue: réalité complexe et discours réducteurs, Revue Déviance et société, Vol 22, N4.
10.Lucchini, Riccardo(2001), Carrière, identité et sortie de la rue: le cas de l'enfant de la rue, Revue Déviance et Société, Vol 25, N1.
11.Neyrand, Gerard et Mekboul, Sahra(2014), Corps sexué de l'enfant et normes sociales la normativité corporelle en société néolibérale, Edition Erés, Toulouse, France.
12.Sirota, Régine(1998), l'émergence d'une sociologie de l'enfance : évolution de l'objet, évolution du regarde, Education et Sociétés, N2.
13.Sirota Régine(2006), Éléments pour une sociologie de l'enfance, Editions PUR.
14.Thierry, Rogel(1997), Sociologie La Stigmatisation, DEES 107 /Mars, En linge: http://www.afrosantelgbt.org/wp-content/uploads/2014/03/10.pdf. Consulté le 20-09- 2018.
15.Fédération des Associations de Parents de l'Enseignement Officie*(*2008), L'évolution de la place de l'enfant dans la société, En linge:https://www.fapeo.be/wp-content/analyses/archives/Place_enfant_societe.pdf. Consulté le 10/10/2018.